الصراع في المحيط الهندي
ساحةٌ رئيسيةٌ في القرن الحادي والعشرين*

روبرت كابلان**

هناك شعاراتٌ، أيا يكن رأْيُنا فيها، مثل »صراع الحضارات« و »الحرب الباردة«، ما تزال مؤثِّرة. وكذلك الأَمْر بالنسبة للخرائط الجغرافية. فالمجالات الجغرافية تلعبُ دوراً في سياسات العالَم. وقد كان تعقُّل خريطة أوروبا ضرورياً للفهم في القرن العشرين. ورغم التقدم التكنولوجي وتغير مسائل المسافات؛ فإنّ بعض الأماكن ما تزال أهمَّ من أماكن أُخرى. وفي بلدان هشّة التكوين مثل باكستان والعراق؛ فإنّ السياسات تقعُ دائماً تحت رحمة الجغرافية. وهكذا، في أيِّ مكانٍ من العالَم يمكن أن نتأمل المستقبل مستندين إلى الوضع الجغرافي؟ الأميركيون مَثَلاً وبسبب موقعهم الجغرافي الخاصّ، ما يزالون أشدَّ اهتماماً بالمحيطين الأطلسي والهادي. وقد ثبت هذا الأمر خلال الحربين العالميتين الأولى والثانية. فألمانيا النازية، واليابان الإمبراطورية، والاتحاد السوفياتي، والصين الشيوعية؛ كلُّها كانت تُركّز على أحد هذين المحيطَين أو كليهما. ويميل بعضُ المؤرخين إلى وضع العالم الغربي في وسط الخريطة، بحيث ينفصل المحيط الهندي في جهاته البعيدة. وتشكّل القرصنة الصومالية، والمذبحة التي حدثت بمومباي في الخريف الماضي؛ دليلاً على أن المحيط الهندي –ثالث أكبر المحيطات– سيظلُّ ساحةً رئيسيةً في القرن الحادي والعشرين. وهذا المحيط يكون على الولايات المتحدة أن تحفظ السلام فيه، وأن تمنع

---

* تلخيص عن: Foreign Affairs, March/April 2009, PP.16-32

** كاتب وصحفي أمريكي .

التهريب والقرصنة، وأن تحتوي الصعود والتنافُس الهندي والصيني، فيه ومن حوله. والتعامل الأميركي مع المحيط لا ينبغي أن يشبه ما حدث بأفغانسْتان والعراق والفِرَق العسكرية الكبيرة والانهماك في نزاعاتٍ أهلية، بل هو دور التوازن والبقاء البحري القوي في الأُفُق.

إنّ العامل الآخر الذي ينبغي التعامُل معه بالإضافة إلى الوجود الأميركي القوي، والصعود الصيني والهندي، أنّ المحيط الهنديَّ يتخلل العالَم الإسلامي ويحتضنه ويمتد عبره ما بين الصحراء والأرخبيل الإندونيسي. والسمعة عن العرب والإيرانيين أنهم بَدْوٌ، لكنهم كانوا أيضاً بحارةً كباراً. وعلينا أن لا ننسى عندما ننظر في المحيط الهندي الممتد بين البحر العربي وخليج البنغال أن مئات الملايين من المسلمين يقيمون على سواحله، وأنّ أكثر ثروات العالم الإسلامي تتدفق من خلاله، وأنّ التوترات فيه ومن حوله هي توتُّراتٌ إسلاميةٌ لا بد من فهم أسبابها، والتصدي لها بالعلاج.

متغيِّراتٌ بحرية: تعرف شعوب المحيط الهندي أسابيع الرياح الموسمية العاتية فتتوقّاها. ولذلك كانت بلدان المحيط الهندي مرتبطةً ببعضها قبل ظهور السفن التجارية. وتمثّلت السِلَعُ التجاريةُ بالبخور والتوابل والأحجار الكريمة والأنسجة. وقد قال المؤرّخ فيليب فرناندز – أرمستو إنّ الطرق البحرية كانت أهمَّ من الطُرُق البرية في كل العصور، لأنّ السفن تحمل بضائع أكثر، ولأنّ التكلفة أقلّ. ولذلك شاعت في أواخر العصور الوسطى المقولة: إنَّ حاكم ملقة أياً يكن، قابضٌ على عُنُق البندقية، لأهمية التجارة الأسيوية بالنسبة لها. وهناك قولٌ آخر: لو كان العالَم بيضةً، لكان مضيق هُرمُز هو الصفار! وحتى اليوم فإنّ 90% من السلع التجارية، و65% من النفط، تُشْحَنُ بحراً. ونصف تجارة المستوعَبات اليوم تمُّر بالمحيط الهندي. والسفن الضخمة عندما تعبر المحيط الهندي تمر بالضرورة في نفس ممرات النفط، بما في ذلك خليج عدن وبحر عُمان وباب المندب وممرّ هرمز ومَلَقة. وإذا كانت 40% من التجارة العالمية تمر بمعبر مَلَقة؛ فإنّ 40% من النفط العالمي يمرُّ بمضيق هُرمُز. والمنتظَر خلال العشرين سنةً القادمة أن تزداد الحاجة للطاقة بنسبة 45%، وأكثر المحتاجين للطاقة في العقد القادم هما

الصين والهند. و85% من حاجات الصين النفطية والغازية تأتي عبر المحيط الهندي، و65% من احتياجات الهند النفطية تأتي من هناك أيضاً.

وهكذا فالهند مهتمة بتوسيع رقعة نفوذها من الهضبة الإيرانية وإلى خليج تايلاند. والمعروف أنّ تجارة الهند مع إيران والعرب هائلة ولا تتناول النفط والغاز فقط. فهناك 5،3 مليون هندي يعملون في دول الخليج، ويرسلون 4 بليون دولار إلى بلدهم في العام. وستظل تجارة الهند تنمو مع إيران ولاحقاً مع العراق. وقد صارت إيران شريكاً استراتيجياً للهند في مواجهة باكستان. وفي العام الماضي وقّعت الدولتان عقداً بالميارات لإمداد الهند بالغاز الإيراني للخمس والعشرين سنةً القادمة. وهناك خطط لنقل الغاز الإيراني بالأنابيب عبر باكستان! كما أنّ الهند تساعد إيران في تطوير ميناء »شاه بهار« العسكري على طرف خليج عُمان. وتوثق الهند علاقاتها بميانمار –التي تحكمها طُغمة عسكريةٌ– بسبب غناها بالثروات الطبيعية التي تحتاجُها البلاد. وتملك الهند 155 بارجة حربية، وهي تزيدُ من قوة بحريتها. ومشكلتها أنّ معظم وارداتها من الطاقة تمر عبر مضيق هُرمُز، وهو قريبٌ من شواطئ مكران الباكستانية؛ حيث تساعد الصين الباكستان في بناء مرفأٍ للرسوّ العميق؛ في حين تزيد الهند من عدد غواصاتها المزوَّدة بالطاقة النووية.

وللصين أيضاً يشكّلُ المحيطُ الهندي شِريانَ حياة. وهي تشكو من مأزق ملقة كما تشكو الهند من مأزق هُرمُز. ويأمل الصينيون أن يتجاوزوا ملقة بنقل الطاقة عبر أنابيب برّيّة من موانئ المحيط الهندي وإلى قلب الصين. وللصين محطاتٌ وموانئ على الشواطئ الباكستانية، والسيريلانكية وبنغلادش. وهي تقدم مئات ملايين الدولارات للعسكريين الحاكمين في ميانمار مقابل الطاقة والتسهيلات. وهذه الموانئ والمحطّات التي تقيمُها الصين هي أقرب لداخل الصين من بكين. ولذلك ينفتحُ ذلك الداخلُ البعيد عن البحر، على العالم، بكلفةٍ رخيصة، وبأمان. وهذه الفعاليات الصينيةُ الكثيرة، والموانئ العميقة؛ تُزعج الهند إزعاجاً شديداً. ولذلك تنشط هي أيضاً لزيادة النفوذ. وكان أحد الجنرالات الصينيين قد قال عام 1993م: لا تستطيع أن تترك المحيط الهندي محيطاً للهند

وحسْب! وقد قامت الهند ببناء موانئ مُحاذية للموانئ الصينية المُقامة في باكستان. وذكر استراتيجي صيني أنّ الهند قد تستخدم جُزُرها الـ 240 أمام شواطئها بمثابة سلسلة معدنية لسدِّ مضيق مَلَقة! وهو الرُعْبُ الذي تهجس به الصينُ دائماً. لكنّ أياً تكن المبالغات؛ فإنّ وراء هذه التصريحات أنّ الصين صارت تعتبر الهند قوةً بحرية.

على أنّ التنافس الهندي/ الصيني ليس هوالمتغير الوحيد. بل إنّ خريطة الحرب الباردة توشك أن تتغير بالكامل. فآسيا تصبح جزءًا واصلاً ما بين المحيط الهادي والشرق الأوسط. ومنذ أيام الغزنويين في القرن الحادي عشر الميلادي، صارت الثقافة الهندية مزيجاً من التقاليد الخاصة، والأُخرى الأسيوية نتيجةً للغُزاة. وقد احتاج الأمر إلى هجمات مومباي، ليشعر العالم أنّ الهند صارت جزءًا من الشرق الأوسط؛ لكنْ في الواقع فإنّ المحيط الهندي بسائر أجزاء ساحله، كان دائماً مترابطاً وعبر عصورٍ متطاولة. كلُّ ما في الأمر أنّ درجة هذا الترابُط ازدادت، وليس عبر البحر وزيادة الموانئ والسفن وحسْب؛ بل وعبر البر، والعلائق المتشابكة بالقنوات والممرات بين البر والبحر. ولذلك قال فريدريك ستار: إن المحيط الهندي سوف يؤثر تأثيراً كبيراً في سياسات آسيا الوسطى! وقال آخرون إنّ موانئ الهند وباكستان تحولت إلى أماكن تفريغ للسفن القادمة من بحر قزوين!

التراجُعُ الأميركي الخفيّ: تُواجهُ الولايات المتحدة ثلاثة تحديات: كابوس الشرق الأوسط الكبير، ومناطق النفوذ في جنوبي الاتحاد السوفياتي السابق، والصعود الصيني/الهندي ومسوؤلياته. والصين ليست عدواً للولايات المتحدة، والهند حليف. والقوة البحرية الهندية رابعة الآن بعد الولايات المتحدة والصين واليابان. وسوف تكون ثالثةً عما قريب. وعلى الولايات المتحدة أن تجمع بين هذه القوى من أجل الانضباط في المحيط الهندي. ويبدو ذلك معقولاً إذا أدركْنا التواصُل المتزايد بين المحيطين الهادي والهندي. ثم إنّ الممرات والموانئ من حول سنغافورة وماليزيا وإندونيسيا، سوف تكون المشهد الرئيسي في الخليج في الحقبة القادمة. والمطلوب من الولايات المتحدة وسط هذا الزحام ليس الهيمنة؛ بل إثبات الفائدة من وراء الحضور. وهناك يحدُثُ التغيير ليس نتيجة تراجُع الأطلسي

وحسْب؛ بل تغيُّر الأَولويات حيث صار المحيطان الهادي والهندي هما الرئيسيان. وهذا ما يظهر في استراتيجية القوات البحرية الأميركية للعام 2025م.

لا تستطيع الولايات المتحدة الهيمنة إلى الأبد. وقد كان عدد السفن الحربية الأميركية في ذورة الحرب الباردة حوالي الـ600 وعددُها اليوم لا يزيد على 279. وقد يرتفع العدد إلى 313 وليس أكثر. وستصبح السفن الحربية الصينية أكثر عدداً بعد قليل. كما أنّ الصين تصنع غواصات تُضاهي خمسة أضعاف ما تقتنيه الولايات المتحدة. ولا يمكن أن نأخذ على الصين تقوية نفسها في البحر، فهي اقتصادٌ كبيرٌ، ومحتاجٌ إلى الحفظ والحماية والأمان. وكذلك كان الأمر لدى بريطانيا مع الأسطول الكبير، بسبب وجود الإمبراطورية، في القرن التاسع عشر. وقد كان اتجاه الصين للقطبية البحرية واضحاً من خلال احتفالها عام 2005م بالقائد البحري زينغ هي أيام أُسرة منغ، والذي اخترق المحيط وزار أكثر بلدان الشرق. وكما حاولت الإمبراطورية البريطانية تجنُّب الفراغ عندما تضاءلت إمبراطوريتُها فاستعانت باليابان والولايات المتحدة؛ فإنّ الولايات المتحدة تتراجع بالتدريج وتُحاولُ تولية اليابان والهند في مواجهة الصين. والهند تريد المساعدة. وقد قال الاستراتيجي الهندي راجا موهان: إنّ الهند تتوجَّسُ من الصين منذ احتلت الأخيرة التبت عام 1959م.

تحالُفُ الأقوياء: دعا فريد زكريا في كتابه: »عالم ما بعد (الحقبة) الأميركية إلى تحالُف أقوياء في ضمان الأمن وحرية الملاحة بالمحيط الهندي. في العام 2008م احتجز القراصنة الصوماليون حوالي المائة سفينة، يبُلُغ عدد أطقُمها 300. وما قلّت الفدية في كل الأحوال عن 1 مليون دولار عن القطعة الواحدة. ومنذ أواسط العام 2008م بدأت الدول تُرسل بوارج حربية لحماية سفنها أوالملاحة بشكلٍ عامٍ، ومن هولاء الأميركيون والماليزيون والكينيون، ثم لحق بهم الروس والفرنسيون– وكثيرون آخرون. والأفضل في هذه الظروف التنسيق ووجود الاستراتيجية. والعودة للقواعد في المدى المنظور سوف تساعد في جَعْل التنسيق فاعلاً.